الفصل الثانى

السحر الرسمى والسحر الشعبى

كان من أبرز نتائج دراستنا للسحر الاسلامى المصرى ، سواء فى مصادره القديمة (التى ترجع الى العصور الوسطى الاسلامية ، وبعدها) أو فى الممارسات الحية فى الواقع المصرى الحديث ، كان من أبرز تلك النتائج توضيح الفرق بين السحر الرسمى والسحر الشعبى بدرجة كافية. وهو فارق لم يعد من اليسير تبينه اليوم بفضل ما طرأ من تطور على هذا الميدان من المعتقدات . ويستحيل كلية ادراكه من واقع الدراسة المكتبية النظرية وحدها .

تبرهن لنا على ذلك الحقيقة البسيطة التى مؤداها أن أحدا من الدارسين السابقين لم يدركه حتى الآن وأبرز من تجب الاشارة اليهم فى هذا المجال الانجليزى وليم لين(١) والفرنسى دوتيه(٢) فقد غفل كلاهما

---

(١) نذكر من مؤلفاته العديدة :

----- E.W. Lane; An account of the manners and cutoms of the Modern Egyptians; London; 1836.

----- ———————— ; Arabian Society in the Middle Ages; London; 1883.

(2) Edmond Doutte; Magie et Religion dans l' Afrique du Nord; Alger; 1909.

وهو مؤلف عظيم الاهمية من حيث استطاعته لاول مرة الاقتراب من كثير من دقائق المعتقدات الشعبية الاسلامية وخاصة السحرية منها . وعلى ما فى كتابه من نقائص — بفضل تاريخه القديم والحدود المفروضة على قدراته كأجنبى يدرس جانبا دقيقا من حياة الشعب — فانها لا يمكن أن تجعلنا نقلل من شأن هذا الكتاب الممتاز الذى أخرجه دوتيه . فقد تناول فيه لاول مرة حشدا هائلا من المادة الجديدة ، كما نجح فى معالجة عدد كبير من المسائل معالجة ممتازة ، يكفى أن نشير فى هذا الصدد الى الفصل الخامس من كتابه وعنوانه (الاغراض العملية للسحر) .

مع الاسف عن ادراك ذلك الفرق ، الذى كان ولايزال واضحا بينا ــ أيام أن أجريا دراساتهما ــ بين السحر الرسمى والسحر الشعبى • فلم يتخذ وليم لين موقفا نقديا من معالجته للتراث الشعبى عموما • أما دوتيه فقد ضلله ان استخدم ــ فى نفس الوقت وعلى مستوى واحد ــ مؤلفات سحرية رسمية خالصة ــ مثل « شمس المعارف الكبرى » للبونى ــ ومؤلفات أخرى رسمية أيضا ولكنها مصطبغة الى حد بعيد بمؤشرات ونتاج رسمى وشعبى واضح ــ مثل « شموس الانوار وكنوز الاسرار الكبرى » لابن الحاج ، الى جانب عناصر سحرية شعبية خالصة ، مما جمعه بنفسه خلال فترة اقامته الطويلة بالجزائر • وكان ان اتخذ موقفا غير متفحص من كل هذا النتاج الشعبى ، بالذات فيما يتعلق بموضوعنا الخاص هنا ، فكان « كله سحر » •

هذا الموقف الخطير الذى اتخذه رائدان كبيران من رواد دراسة التراث الشعبى العربى ــ وخاصة السحرى ــ كان له أكبر الاثر فى عدم انتباه من جاءوا بعدهم ، وكرسوا كل جهودهم لدراسة المعتقدات ــ والسحر بالذات ــ الى هذا الفرق • ونذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر دارسين شهيرين فى هذا الميدان مثل : فينكلر(٣) ، وتسبندن(٤) ، وكريس(٥) ،

---

(3) Hans A. Wimkler; Siegel und Charaktere in der Mohammed anischen Zauberei; Stdien Zur Geschichte und Kulture des islamischen orients Heft VII Berlin und Leipzig; 1930.

———— : Bauern Zwischen Wasser und Wüste; Volkskund Liches aus dem oberagyptischen Dorf «Kiman»; Stuttgart; 1934.

———— ; Agyptische Volkskunde; Stuttgart; 1939.

———— ; Die reitenden Geister der Toten; 1936.

وترجمة هذه العناوين :

١ ــ الاشكال والخواتم فى السحر الاسلامى . المجلد السابع من سلسلة دراسات تاريخ وثقافة الشرق الاسلامى .

٢ ــ فلاحون بين الماء والصحراء (دراسة مونوجرافية لقرية الكيمان بمحافظة قنا) .

=

فقد انطلقوا بصفة عامة من نظرة لين ودوتيه • شجعهم على ذلك أنه فرق حى ، لا يمكن تبينه من مجرد الدراسة المكتبية النظرية ، ولا يلمسه الا من خبر هؤلاء الناس — أصحاب هذا التراث — عن قرب ، وعايشهم وفهم مكنون نفسهم وفكرهم ، وهذه حسنة كبيرة لمن يدرس تراث بلده ونتاج شعبه •

قد يسأل سائل : ولكن ما هى جدوى تحديد هذا الفرق ، ومعرفته ، وما معنى مراعاته عند تناول مادة سحرية بالدراسة ؟ كما سيتضح من عرضنا أن هناك — علاوة على الاختلاف فى النظرة الى العالم ، وفى الموضوعات الاساسية التى يدور حولها كل من النوعين المذكورين — فروقا واضحة فى أسلوب التناقل أو التوارث ، فروقا يجب الالتفات اليها عند الجمع(٦) ، وعند الدراسة التحليلية على السواء • يرتبط بها كذلك فروق

= ٣ — الفولكلور المصرى .
٤ — أرواح الموتى التى تلبس الناس .
(٤) انظر كتابه : « الجن فى الاسلام » .
Zbinden : Die Djinn des Islam; Bern; 1953.
وهو يقودنا عبر تاريخ الثقافات الشرقية بأجمعها ، يستعرض المعتقدات الشعبية الدائرة حول الجن ، ثم يحاول استعراض أصولها .
(٥) انظر كتابه : « المعتقدات الشعبية فى العالم الاسلامى » .
R. Kriss und Kriss-Heinrich; Volksglaube im Bereich des. Islam; 2 Bde; Wiesbaden; 1960; 1962.
ويتناول فى الجزء الاول « الأحجبة والصيغ السحرية والتعاويذ » . وليس هذا الكتاب الضخم — الذى يجاوز الالف صفحة — سوى تجميع للمؤلفات والمقالات المنشورة من قبل . ولم يحالفه التوفيق فى بعض المواضع . كذلك لا تستطيع الأحجبة ، وطاسات الخضة وغيرها من المواد الجديدة التى نشرها كريس لاول مرة أن تقودنا الى اتجاهات أساسية جديدة لانها ليست مرتبطة ارتباطا عضويا بالكتاب .
انظر كذلك دراسته عن « الخضر » .
R. Kriss; St. Georg — al-Hadr; in : Bayerisches Jahrbuch für Volksknude; München; 1960.
(٦) فيما يختص بأصول وعناصر الدراسة الميدانية للسحر الرسمى ، انظر : محمد الجوهرى ، الدراسة العلمية للمعتقدات الشعبية ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، دار الكتاب للتوزيع ، ١٩٧٨ .

فى المصادر التى أثرت فى مادة ، وفى شكل كل نوع منهما وهو ما يجب مراعاته عند أى استعراض تاريخى ، أو تفسير وفهم لمضمونه • ثم أخيرا — وجماعا لكل هذا — اختلاف فى خط التطور العام ، وفى الاجابة على السؤال الكبير : الى أين يتجه تراثنا السحرى ؟ •

ولكن لنرجع عن هذه الاسئلة الكبرى ، لنتحقق فى البداية من أمر صغير : هل هناك سحر رسمى وآخر شعبى ؟ ما هى خصائص كل منهما ، وهل هناك نماذج محددة يمكن أن نسوقها ؟ وسنحاول فيما يلى الاجابة على هذه الاسئلة •

السحر الرسمى والسحر الشعبى :

لعل هناك فارقا أوليا — وغير فنى — بين نوعى السحر المشار اليهما : فالرسمى — فى صورة المعروفة التى سنعرض لها — يخاطب فئة محدودة من الناس هم السحرة المحترفون(*) •• « المشايخ » المعرفون لنا جميعا فى — ريف بلدنا وحضرها • أما الشعبى — فى صوره المتميزة عن الاولى — فملك لنا جميعا ، لجدتى ، وأمى ، ولى ولاسرتى الصغيرة ، نحن نعيشه ونمارسه كل يوم •

ولذلك يطالعنا كتاب أساسى فى السحر الرسمى هو « شمس المعارف الكبرى » للبونى على الصفحة الثالثة من المجلد الاول — بعد أن فرغ من ديباجة الكتاب :

(*) أود أن أسلم هنا بأن كلمة « رسمى » قد سببت لى كثيرا من المشكلات واثارت لدى أساتذى وزملائى ممن قرءوا الرسالة أو هذا المقال قبل نشره عديدا من التساؤلات . ولم يكن مطروحا كبديل لها سوى « الاحترافى » . حقيقة انها أقرب التسميات الاخرى الى ما نريد أن ندل عليه ، من حيث أن الرسمى « يمارس عادة بواسطة محترفين . ولكن هذه ليست القاعدة ، فليس ضروريا أولا : أن تمثل « الكتابة » أو حرفة الاشتغال بالسحر العمل الرئيسى لمن نحن بصدد الكلام عنه ، ثم أنه ليس من المحتم — ثانيا أن يؤجر على هذا العمل . فقد يكون « ورثه » ويمارسه خدمة ومحبة ووداً .. وقد اتضحت لى هذه الامور من الدراسة الميدانية التى درست فيها فى شتاء ١٩٦٥/٦٤ بعض المشتغلين بالسحر فى بعض أقاليم بلادنا وكنت قبلها أميل الى استخدام مصطلح احترافى .

« انه كتاب الاوليـــاء والصالحين الطائعين والمريدين والعاملين الراغبين »(٧) • يرتبط بهذا أوثق الارتباط ويترتب عليه أن يطلب الساحر الرسمى فى مفتتح كتابه أو رســالته أن يضـــن من وصـــلت اليه هـــذه المعلومات ، يضن بها عن الآخرين وألا يبوح بما تحويه من أسرار • ويقول البونى فى الافتتاحية المشار اليها : « •• فحرام على من وقع كتابى هذا فى يده أن يبديه لغير أهله ، أو يبوح به فى غير محله ، فانه ان فعل ذلك حرمه الله تعالى منافعه ومنعت عنه فوائده وبركته • ولاتمسه الا وأنت طاهر ، ولا تقربه الا اذا كنت ذاكرا ، لتفوز منه بما تريد ، ولا تصرفه الا فيما يرضى الله تعالى •• فكن به ضنينا ، ولا تدع منه قليلا ولا كثيرا وليكن يقينك صادقا وايمانك بحقائقه واثقا ••• » •

السحر الرسمى اذن يحرص بشدة على أن يبقى على خصوصيته ، وعلى ألا يذيع « سر المهنة » مهددا قارئه أو عميله فى أكثر من موضع ـــ على لسان المؤلف نفسه أو على لسان ملاك أو خادم فى سياق معين ـــ بأن يبطل مفعول هذا التأثير ان هو باح به لاحد(٨) •

فما هى على وجه التحديد معالم كل من هذين النوعين ، مع التنبيه مرة أخرى بأن حديثنا ـــ فى مادته ـــ محدود بحدود السحر الاسلامى المصرى وان كانت نتائجه المنهجية يمكن أن تكون بذات بال لمن يعرض فيما بعد بالدراسة العلمية لتراث سحرى فى مجتمع عربى آخر ، حيث قد يكون من الضرورى الانتباه الى فروق من هذا النوع ، أو الى تحديدات أخرى أولية للمادة المتناولة(٩) •

---

(٧) انظر : البونى ، شمس المعارف الكبرى جـ ١ ، ص ٣ •

(٨) انظر على سبيل المثال : شمس المعارف ، جـ ١ ، ص ١٢٩ ، ومنبع أصول الحكمة للبونى ايضا ـــ ص ٢٤١ (نفس النص الســـابق مختصرا) • ثم شمس المعارف جـ ١ ص ٦٧ ، ومنبع أصول الحكمة ص ١٨ ، ١٩ •

(٩) فنلاحظ مثلا أن الفرق بين السحر الرسمى والسحر الشعبى أوضح وأخطر بالنسبة لبعض بلاد المغرب العربى ، ونقصد بالذات كلا من الجزائر ومراكش (المغرب) • فقد أفادتنا بالنسبة للبلد الاول دراسات دوتيه التى أشرنا الى أهمها ، وكشفت لنا دراسة « ليجى » ـــ طبيعة فرنسية أقامت =

بعد هذا يختلف ميدان السحر الرسمى والسحر الشعبى عن بعضهما من النقاط التالية :

١ — النظرة الى العالم (فكرتهما عن العالم) .
٢ — الموضوعات الاساسية التى يدور حولها كل ميدان منهما .
٣ — الشكل الذى يحفظ ويتوارث به كل نوع منهما .
٤ — مصادر التأثير على كل نوع ، أو على الاقل ترتيب أهميتها .
٥ — مدى شدة الحاجة الدافعة الى اللجوء للسحر فى كل منهما .

ونعرض لهذه النقط بشىء من التفصيل فيما يلى :

يعتقد الساحر الرسمى أن الله هو خالق نظام هذا العالم والمسيطر عليه ، وأن هذا النظام لا يخضع لارادة غير ارادته . هو الذى خلق كل شىء . وان كان قد سار فى ذلك وفق بعض الاسس السحرية (العلمية) من هذا مثلا : أنه خلق كل شىء بقوة اسمه هو ، وخلق الاشياء الطيبة فى الوقت الطيب المناسب ، وخلق الاشياء الضارة فى الوقت النحس غير المناسب ، وخلق لكل شىء ملاكا أو روحا أو كل اليه الاشراف عليه .

وتمثل هذه العناصر الأركان الاساسية للعملية السحرية . فالاسم يمثل فى جميع الثقافات التقليدية قوة خاصة . وهو مرتبط بشخصية صاحبه بواسطة قوة روحية . وقد لعبت هذه الخاصية السحرية للاسم — ولازالت تلعب — دورا هاما للغاية فى الحياة الروحية لجميع الشعوب وفى جميع العصور . وهنا أيضا تلعب الاسماء — سواء كانت أسماء الهية أو غير ذلك — الدور الاساسى . ويعتبر ميدان علم الاسماء تتويجا للميادين الاخرى كعلم الحروف ، وعلم الخواتم والاشكال ، والمربعات ، والتنجيم وغير ذلك . فهى تعتبر جميعا ذات أهمية ثانوية بالنسبة لهذا

= عمرها فى المغرب — عن الكثير فى هذا الصدد . فرأينا أن السحر الشعبى — هناك أيضا — متميز بصور وموضوعات وممارسات ومصادر تأثير خاصة .
انظر : Doutté; op. cit; and Legey; Essai de folklore.

« العلم »(١٠) • أما من حيث ارتباط العمل السحرى بوقت معين ، فتتجلى لنا العلاقات القوية المتبادلة بين علم الاسماء وعلم التنجيم • فالساحر يرى أن الاسم الالهى لايمكن أن يستخدم هكذا فى كل وقت من الاوقات • وانما لكل اسم منها وقت خاص به يجب استخدامه فيه • ويتوقف تحديد هذا الوقت على عاملين :

(أ) طبيعة الوقت نفسه ان كان سعيدا أو نحسا •

(ب) طبيعة ومزاج الملاك الموكل بالاسم(١١) •

أما من حيث الملائكة الموكلين فيرى السحر الرسمى أن لكل مخلوق ملاكا موكلا به • ولكل اسم من أسماء الله خادم موكل به ، كما أن هناك خادما لكل آية قرآنية ، وكل حرف من حروف الابجدية ، بل وكل دعوة (رقية) •

وليست الملائكة الخدام قاصرة فقط على هذه الاشياء « المقدسة » وانما هناك أيضا خادم لكل يوم من أيام الاسبوع ، ولكل ساعة من ساعات اليوم ، ولكل فصل من فصول السنة ، ولكل نوع من الرياح ، وكل اتجاه من الاتجاهات الاربع •• الخ(١٢) •

ويرى الساحر الرسمى أن مهمته هى خلق كل شىء وفقا لنفس المبادىء التى اتبعت فى الخلق الالهى بقدر الامكان • والمقصود بكلمة

---

(١٠) تناولنا هذه النقطة تفصيلا فى الفصل التمهيدى لرسالة الدكتوراة المذكورة ، ص ١ وما بعدها .

(١١) لشرح العلاقة بين التنجيم والاسماء ، انظر :

El-Gawhary; op. cit; p. 12 and p. 176; M. Horten; Die religiose Gedankenwelt des Volkes in heutigen Islam; Lieferung I; Halle; 1917; p. 117 Lieferung 11. Halle; 1918.

هورتن : الفكر الدينى الشعبى فى العالم الاسلامى اليوم ، المجلد الاول ، ١٩١٧ ، والثانى ١٩١٨ .

(١٢) فيما يختص بالملائكة الموكلين بالاسماء ، والخدام السحريين بصفة عامة ، انظر : El-Gawharg; op. cit; p. 198 ff.

« خلق » هنا صنع شيء جديد أو تغيير شيء قائم فعلا • وهو يحاول فى هذا الصدد أيضا استخدام نفس الوسائل التى استخدما الله فى خلق العالم • ولذلك لا يمكن أن ينجح له أى عمل دون اذن وتفويض من الله • ونلاحظ أن السحرة الرسميين يؤكدون هذا فى كل مناسبة ، وعند تقديم أى وصفة سحرية • ولا يمكن أن تتحقق فاعلية أى من الوسائل التى أشرنا اليها : أسماء الله واختيار الوقت المناسب ، الحروف ••• الخ الا من خلال القوة التى يضفيها الله عليها ، ومن خلال مساعدة خدامها من الارواح الذين هم خلق الله تعالى •

ولعله من المفيد لتوضيح ذلك أن نورد نصا من كتاب شمس المعارف للبونى : يقول فى بداية حديثه عن شرح الاسماء الحسنى : « ••• أعلم أن اسمه تعالى الله هو اسم الله الاعظم ، وهو من الاذكار المفردة العظيمة • فمن ذكره ٦٦ مرة بعد صلاة ركعتين فى جوف الليل بعد صوم ورياضة طويلة فانه ينزل عليه سيد الروحانيين الملك كهيال عليه السلام وهو من الملائكة التى تجاه العرش وهو حاكم على ٦٦ صفا من الملائكة وتحت كرامته أربع قواد تحت يد كل ٦٦ ملكا فاذا ذكره الذاكر عدده فى خلوته فان الخادم يحضر ويخر ساجدا لله تعالى • ويقول فى سجوده أسماء عظيمة سريعة الايجابة وهى اللهم أنى أسألك بالله •• أسألك بأحديتك وصمديتك ونعوت ربوبيتك أن عبدا من عبيدك قد شاركنا التسبيح والتقديس ألأمر أمرك فان أمرتنا بالنزول اليه فبارادتك • فيقول الله تعالى انزلوا اليه واقضوا حاجته فانه دعا باسمى الأعظم • فينزل ومن معه الى الذاكر ، ويقول : أيها العبد الصالح •••»(١٣) •

---

(١٣) انظر : أحمد البونى ، شمس المعارف الكبرى ، حـ ٣ ، ص ٢٧٠ وما بعدها . وقد تناولنا هذا النص بالتحليل المستفيض لمكوناته ودلالتها المختلفة من واقع التراث السحرى الرسمى مثل : معنى اسم هذا الملاك ، ودلالة الارقام التى وردت فى النص ، والتسلسل الامثل لسير العملية السحرية ، والشروط التى يفرضها الملاك الموكل بالاسم ، وغيرها من الشروط الواجبة التحقيق قبل أن يصبح الملاك تحت تصرف الساحر يأتمر بأمره ويقضى له حاجته . انظر :

Moh-El-Gawhary; op. cit; pp. 201-211.

يترتب على هذا منطقياأن اتباع الطرق والأساليب الواردة والمفصلة فى كتب السحر المختلفة عند تقديم وصفة سحرية معينة لا بد أن يقـود حتما الى النتيجة المطلوبة • ولكن ماذا لو تأخرت النتيجـة أو احتجب التأثير المنشود تماما ؟ تفسير ذلك عند الساحر الرسمى : فالخطأ طبعا راجع الى شخص الساحر المنفذ وليس كامنا فى طبيعة التكنيك المستخدم أو راجعا الى قصور فى قوة الاسم الالهى أو غيره من عناصر العملية السحرية • ولذلك يقول البونى : « •••• وان لم تحصل الاجابة فمن تقصيرك فان هذا الدعاء لا يخيب من دعا به موقنا مخلصا أكالا للحلال صواما قواما صاحب صلاة ورياضة وصدق نية • وقد قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم فمن يدعوا والمطعم حرام والمشرب حرام والملبس حرام أنى يستجاب له • فعليك بالحلال يستجيب لك لأنه دعاء الأولياء والأصفياء »(١٤) •

أما بالنسبة للساحر الشعبى ــ ان جاز هـذا التعبير ــ فالفـكرة أبسط من هذا بكثير • حقيقة أنه يسلم ــ كمسلم ــ بأن كل شىء فى هذا العالم يخضع لارادة الله • ولكنه يعتقد مع ذلك أن كل خير أو شر يمكن أن يصيب الانسان يرجع الى علاقة بين الانسـان الفرد والجن • ولذلك ليس « علم » السحر الشعبى سوى كيفية تسخير واستغلال الجن للحيلولة دون وقوع شىء ضار أو لعمل ما من شأنه الاضرار بأحد • واذا ما تتبعنا تصور المستخدم للسحر الشعبى أكثر من هذا لاتضح لنا أنه يتجاوز عتبة الوثنية ، ويدخل فى تناقض مع المبادىء الاساسية للدين الاسلامى (١٥) •

من هذا يتضح لنا مدى الاختلاف فى النظرة الى العالم بين نوعى

---

(١٤) البونى ، شمس المعارف ، جـ ١ ، ص ١٠٧ .

(١٥) وقد بدت هذه النقطة بجلاء من استعراض لشبندن Zbinden للمعتقدات الشعبية الدائرة حول الجن والعفاريت فى مؤلفه المشار اليه ، فى مواضع متفرقة .

السحر غير أننا سوف نرى فيما بعد كيف أن هذه الهوة آخذة فى التضاؤل بمرور الايام •

أما من حيث الموضوعات الاساسية التى يدور حولها كل ميدان منهما ، فنجد أن السحر الرسمى يدور أساسا حول الدراسة التقليدية والبحث فى الله وعرشه ، وخدمه ، وما يرضيه وما يغضبه •• الخ • وكذلك الملائكة ، والجن والخصائص السحرية للحروف والاعداد وأسماء الله والنباتات والحيوانات •• الخ • ثم تأتى فى مرتبة تالية على هذا التعاليم الخاصة باستخدام هذه العناصر السحرية ، وطرق نقل هذه الاسرار الى الاجيال التالية والحافظة عليها • ثم تلى ذلك الاغراض التى يمكن استخدام هذه العناصر السحرية فيها •

على أننا نؤكد أن الانتفاع العملى يخضع لدرجة تدين الساحر ، وما بلغه من تقدم فى مراتب التصوف والاخذ بأساليبه الصعبة ، التى تسعى الى تخليص جسده وروحه من كل شرك أو فساد أو ظلم • معنى هذا أنه لايستطيع هكذا دفعة واحدة تحقيق التأثير السحرى المطلوب ، بل لابد له أن يتوصل الى ذلك على مراحل ، حتى يصل فى النهاية الى أن « يخضع الله له كل المخلوقات »(١٦) •

أما السحر الشعبى فيدور أساسا حول الممارسة العملية • ولا تحتل العناصر النظرية — التى كانت تشغل مكانة بارزة فى السحر الرسمى — سوى مرتبة ثانوية فقط • ونجد بعض الموضوعات التى كانت تعالج فى السحر الرسمى بمنتهى العناية والاسهاب ، لا تتمتع هنا الا بأهمية ضئلة والعكس بالعكس • ولذلك كان من أبرز الظواهر المصاحبة لتدهور السحر الرسمى فى العصر الحاضر — بعد أن فقد موارده من السحرة الرسميين المتخصصين وأتى العصر الحديث على كثير من مكانته السابقة ،

---

(١٦) انظر : البونى ، شمس المعارف ، ج ٣ ، ص ٢٩٥ .

وفقد بذلك طابعه « الاكاديمى » الذى أشرنا الى طرف منه ــ كان من أبرز تلك الظواهر التى طوعت الكتب السحرية الرسمية لمتطلبات الشعب ، ومفاهيم السحر عنده ــ فهو لايحتاج الا الى وصفات لمواقف معينة • فكان أن أصبحت كتب السحر اليوم لا تعدو مجموعة كبيرة من الوصفات التى يلجأ اليها الساحر المحترف لاجابة طلبات عملائه • وتزود هذه الكتب الجديدة ــ أو القديمة المعاد طبعها ــ بفهارس مفصلة تقتصر عادة على سرد الاغراض التى يمكن أن تستخدم فيها هذه الوصفات • ولم يعد على الساحر المحترف ــ عندما يأتيه العميل ــ الا أن يقلب صفحات فهرس الكتاب الذى يستعمله ليفتح مباشرة على الوصفة التى ينقلها للعميل كما سنرى تفصيلا فى الفقرة التالية من هذا الفصل(١٧) •

ويرجع هذا الفرق فى الموضوعات الاساسية بين ميدانى السحر الى وجه الاختلاف الثالث الذى أشرنا اليه • اذ لما كان السحر الرسمى أساسا تراثا مكتوبا ، لا يتناقل ولا يحفظ الا مدونا ، نجده أكثر تأثرا بالتراث الحضارى المكتوب عادة • وتأتى فى مقدمة هذه الكتب : تلك المؤلفات التى نقلت الى العربية من اللغتين العبرية والسوريانية ، وتحتوى هذه الكتب ــ بشكل واضح كل الوضوح ــ الى جانب العناصر العبرية والسوريانية على عناصر بابلية ، وآشورية ، واغريقية • ومن المؤلفات ذات التأثير الهام فى هذا الصدد أيضا : الكتب العربية فى فجر الاسلام •

أما السحر الشعبى فيقوم أساسا على المعتقد المحفوظ فى صدور الناس ، وعلى الخبرات المكتسبة ، التى يتم تواترها وحفظها شفاهة فى المقام الاول • مثل : الحسد وما يدور حوله من معتقـــدات وممارسات ، والتفاؤل والتشاؤم من الاسماء كالتفاؤل بكلمة أخضر والعزوف عن ذكر

---

(١٧) انظر : El-Gawhary; op. cit; pp. 116-117.
كما اتضحت هذه النقطة فى الدراسة الميدانية التى أشرنا اليها لمجموعة من سحرة الصعيد ووجه بحرى ، انظر الفصل الاخير من هذا الكتاب .

أسماء الامراض الخطيرة كالسرطان أو غيره ، وذلك ايمانا بالقوة السحرية للاسم • فذكر الاسم استحضار لمضمونه واتصال بهذا المضمون •• الخ • وكذلك عفريت الليل وما يسجله المعتقد الشفاهى عنه من قصص وحكايات، وسنعرض له بشىء من التفصيل فيما يلى) • ولهذا نرى هذا الميدان أكثر تأثرا بالتراث الشفاهى المتواتر فى المجتمع المصرى • وأبرز عناصر هذا التراث : البقايا المصرية القديمة ، والمسيحية القديمة ، والاسلامية الاولى التى نقلت الى مصر على يد القبائل التى هاجرت اليها بعد الفتح العربى • وقد استوطنت هذه القبـــائل فيما بعد بعض أقاليم مصر ، فقربت الى المصريين من خلال ذلك التراث العربى القديم والاسلامى الاول(١٨) •

علينا بعد ذلك أن نذكر بكلمة سريعة اختلاف مدى حاجة الشخص الممارس (العميل) فى كل نوع من نوعى السحر • ذكرنا أن الســـحر الشعبى يعتمد على خبرة عامة غير عميقة الاسس • ويمارس الســـحر الشعبى من قبل كل فرد فى المجتمع فى كل مناسبة من المناسبات • أما السحر الرسمى فيقوم على معارف متخصصة ذات أساس « علمى » • ولا يذهب الشخص للساحر الرسمى الا اذا كان السحر الشعبى قـــد أخفق فى تحقيق النجاح المطلوب ، أو اذا قدر صاحب الحاجة بادى ذى بدء أن الهدف المنشود عظيم الاهمية بحيث أن الخبرات الضعيفة المحدودة للسحر الشعبى لن تيسر الوصول اليه • ونذكر كمثال للحالة الاولى السيدة التى تريد انجاب أطفال • فهى تسعى فى أول الامر الى أن تعالج نفسها وزوجها بواسطة الطرق المعروفة • وهى تستعين فى ذلك بخبرات الاقارب والجارات فاذا ما أخفق كل هذا لجأت الى الساحر الرسمى • وبذلك يبدأ السحر الرسمى • ثم نذكر كمثال للحالة الثانية الرجل الذى يريد القضاء

---

(١٨) مصادر التراث السحر المصرى من أهم ـــ وأطرف ـــ قضايا دراسة المعتقدات الشعبية المصرية ، ولن يتسع المجال هنا للافاضة فى توثيق هذه المؤثرات فذلك مكانه بحث مستقل يعتزم كانت هذه الســـطور تقـــديمه حول « مصادر التراث السحرى فى مصر » .

على جاره لاى سبب من الاسباب — وهو غرض وارد بكثرة فى كتب السحر — فهو يرى منذ البداية أن خبراته أضعف من تحقيق هذه الرغبة • ولذلك يتجه الى الساحر الرسمى مباشرة(١٩) •

مثـــال :

نود أن نسوق المثال التالى لزيادة توضيح الفرق بين السحر الرسمى والسحر الشعبى ، ونريد أن نمس بهذه المناسبة بابا هاما وكبيرا من أبواب السحر الشعبى ، وأعنى « عفريت الليل » • فهو يفسر فى رأى المعتقـــد الشعبى :

(أ) على أنه روح ميت • فاذا مات انسان فى حادث نشأ « من دمه » عفريت(٢٠) •

وتتخذ هذه العفاريت عادة أشكالا معينة • كما أنها تظهر فى أماكن معينة • وتستطيع أرواح الموتى أن تدخل فى الحياة متخذة صورة عفريت ، وذلك لتأدية مهمة معينة • من هذا مثلا أن تظهر روح ولى فى صورة حيوان رهيب لمعاقبة من حقر من شأن الولى أو أهان ضريحه(٢١) •

(ب) كما قد يفسر على أنه جن ، وهذه اما أن تكون جان طيبة أو جان شريرة • وتتخذ الجان الطيبة أحيانا هيئة الثعبان أو القطة •• الخ وتكون مهمتها غالبا حماية مكان معين أو الحرص على معاملة الانسان للارواح السفلية معاملة طيبة(٢٢) • أما مهمة الجان الشريرة فهى الحاق الضرر

---

(١٩) هذه المعلومات مستخلصة من دراستنا الميدانية المشار اليها . انظر الفصل الاخير من هذا الكتاب .

(20) See Winkler; Totengeister....; p. g; ders. Agyptische Volkskunde; pp. 229 ff; ders. Bauern Zwishen; pp. 49 ff.

(21) Winkelr; Totengeister; p. 39.

وشواهد أخرى عن تسبندن .

Zbinden; op. cit; pp. 5 ff.

(22) Zbinden; op. cit; pp. 3 ff. وخاصة صفحة ٥ .

بالانسان والحيوان(٢٣) .

(ج) وقد تفسر عفاريت الليل على أنها أرواح مختلفة ، لها شروط معينة لم تتحقق ، من هذا مثلا روح أحد التوائم التى تظل تحوم فى المنطقة على هيئة قطة حتى يعطى لهذا الطفل لبن ناقة ليشربه(٢٤) .

وتتخذ هذه العفاريت عادة أشكالا مختلفة وتسكن غالبا تحت الارض، وفى النار ، وفى الآبار ، وفى الخرائب ، وفى المراحيض والافران ، وفى المقابر . وبصفة عامة فى الاماكن المظلمة والصحراء التى تحيط بكثير من قرى الصعيد(٢٥) .

ويتضمن المعتقد الشعبى تفاصيل دقيقة عن أصول التعامل مع هذه العفاريت الامر الذى لا نستطيع أن نعرض له فى هذا المقام . وبينما يحتل هذا الموضوع مكانة بارزة فى السحر الشعبى ، نجده يكاد لا يذكر فى كتب السحر الرسمى البحت . وهو لا يرد فى مؤلفات البونى الا فى موضع واحد فى كتاب شمس العفاريت الكبرى ، حيث يقول : حكى الاوزاعى رحمه الله تعالى ، قال تخيل لى خيال فى الليل ، فجزعت منه فقلت باسم الله الرحمن الرحيم ، فقال لى : لقد استعذت بعظيم وانصرف عنى(٢٦) .

ملحوظة ختامية :

نعرض فى النهاية على عجل لعلاقة التفاعل بين هذين النوعين من السحر . فكل شىء فى هذا المجال خاضع للتغير . فازدادت بمرور الوقت صعوبة تبين الخصائص المميزة لكل نوع منهما . وأخذت حدودهما تتلاحم، بل وتتداخل فى بعضها .

---

(٢٣) أنظر أمثلة لذلك عند تسبندن ، المرجع السابق ، ص ٧ .
(٢٤) أنظر ، فينكلر ، أرواح الموتى ... ، ص ٧ .
(٢٥) أنظر تسبندن ، المرجع السابق ، ص ٣ وما بعدها .
(٢٦) أحمد البونى ، شمس المعارف ، ج ٢ ، ص ١٨٧ .

ويجب ألا ننسى فى هذا الصدد أن حملة السحر الرسمى هم أبناء هذا المجتمع ، ولدوا فيه وعاشوا فى اطاره • فهم أنفسهم همزة وصل بين نوعى السحر • اذ يأخذون من السحر الرسمى خبرات ومعارف ينقلونها للشعب أثرت فى السحر الشعبى تأثيرا قويا • وهم بالعكس أيضا ينقلون عن السحر الشعبى الشىء الكثير الذى يثرون به مؤلفاتهم ووصفاتهم فى السحر الرسمى •

ثم هناك عملية أخرى كان لها أعظم الاثر فى الفترة الاخيرة • والرأى عندنا أنه لم يعد هناك بشىء فى ميدان السحر الرسمن بمعناه الحقيقى ، وأن السحر قد فقد كثيرا من مكانته كمهنة • فهناك اذن نوع من «التوقف» فى انتاج سحر رسمى جديد ، ولم يعد أمام مخلفاته الباقية الا أن تتقدم الثوب الذى يغلف فيه الممارسون مادتهم السحرية الشعبية التى لازالت تدب فيها الحياة •

فبذلت جهود كثيرة لصبغ أفكار وخبرات السحر الشعبى بطريقة التفكير المعروفة فى السحر الرسمى • مما نتج عنه مؤخرا حشد ضخم جدا من الكتب ــ والمخطوطات طبعا ــ التى تحتوى فى جوهرها على تصورات وخبرات سحرية شعبية ولكنها مغلفة بمناهج وخبرات سحرية رسمية ، وهى فى نفس الوقت وسيلة ــ تجارية نفسية ــ لتأكيدها وابراز مدى فاعليتها(٢٧) •

---

(٢٧) وهناك اكثر من نموذج لمخطوطات وكتب سحرية ذات مضمون شعبى وشكل رسمى ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

(أ) البونى وابن الحاج : مخطوطة : « مجموعة فوائد من كتاب شمس المعارف الكبرى للبونى وكتاب ابن الحاج وغيره » . رقمها بدار الكتب المصرية ، ٣٩ ش . وهى منسوبة بهذه الاسماء فقط ، ولكنها انتاج شعبى متأخر . انظر تحليلا لها فى :

الجوهرى ، المرجع السابق ، ص ٣٥٠ .

(ب) ابن الحاج ، مخطوطة : « بلوغ القصد والمنى فى خواص اسماء الله الحسنى » . ترجع الى عام ١٨٥٥٦/١٢٧٣ . دار الكتب المصرية ، رقم ٥٨ ش . انظر :

=

ولا ننسى هنا الدور الكبير الذى تلعبه بعض دور النشر المصرية فى هذا الصدد • فهى تحقق تجارة رابحة للغاية ، اذ لا تحتاج الى أكثر من طبع بعض فصول من كتاب أو عدة كتب سحرية • وقد يحدث فى بعض الاحيان أن يعيد أحد الشيوخ كتابة هذه الفصول(٢٨) • ولو أن هذه ليست هى القاعدة السائدة • كما يعاد اليوم طبع مؤلفات بأكملها ، كشمس المعارف الكبرى للبونى مثلا(٢٩) •

هكذا يتضح كيف أن تبين هذا الفرق الاساسى الهام له خطورته التى تحتم علينا الالتفات اليه عنـــد الجمع ، وفى الدراســـة التحليلية ، وخاصة جانب العرض التاريخى منها • أما من حيث التنبؤ بخط التطور فى المستقبل ، فالواقع الذى سنتعامل معه هنا ــ ازاء ما حدث من توقف فى انتاج سحر رسمى جديد ــ عبارة عن سحر شعبى متوشح بغلاف رسمى• لذلك فان تحريم تداول الكتب السحرية ــ مع افتراض تذليل كل ما يعترض ذلك من صعوبات عملية ــ لن يقضى الا على هذا الثوب المتخلف من حضارات القرون الماضية • أما محتواه ــ السحر الشعبى بصورته التى حددناها من قبل ــ فسيظل يمثل تحديا أساسيا ، لن يفلح معه الا الحوار الذى يسحب الارض من تحت قدميه •

= الجوهرى ، المرجع السابق ، ص ٣٥١ .

(ج) هرمس الحكيم ، مخطوطة : « كتاب هرمس الحكيم فى علم الحروف والاوفاق » ، دار الكتب ، رقم ٥٠ ش . انظر تحليلا مفصلا لها فى :

محمد الجوهرى ، المرجع السابق ، صفحتى ٣٥١ ــ ٣٥٢ .

(٢٨) والنموذج الامثل على هـــذا الكتاب : « منبع أصـــول الحكمة » المنسوب للبونى ، القاهرة ١٩٥٦ . وقد أثبتنا أن الكتاب بشكله الحالى ليس من تأليف البونى : انظر :

محمد الجوهرى ، المرجع السابق ، ص ٣٥٥ .

(٢٩) فلازالت طبعاته تتوالى حتى عام ١٩٦٩ الذى نشهده الآن .